ابن باديس: لمحات من سيرته وجوانب من جهوده الإصلاحية والتربوية

د. سعد بوفلاقة*

موجز ترجمته

هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس، ولد في مدينة قسنطينة بالجزائر سنة 1308هـ/1889م. وتوفي فيها سنة 1359هـ/1940م عن عمر ناهز إحدى وخمسين سنة. نشأ في أسرة مشهورة بالعلم والمال والجاه، يمتدُّ نسبها إلى المعزّ بن باديس الصنهاجي أحد مشاهير الدولة الصنهاجية الأولى التي حكمت في المغرب العربي في الفترة الممتدة بين سنتي (362 – 547 هـ)، وابن باديس نفسه يقرُّ بهذا الأصل[1]. نشأ في أحضان هذه الأسرة ذات المكانة المحترمة، فأرادت له أنْ يكون عالما وفقيها، لذا ألحقته بالكتّاب فتتلمذ على يد محمد المدّاسي وحفظ القرآن الكريم «في السنة الثالثة عشرة من عمره»[2] ثم تتلمذ فيما بعد على يد الشيخ حمدان لونيسي حيث أخذ عنه

---

* جامعة عنابة، الجزائر.

1 - انظر معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر لعادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980 م ص: 28-29. ورابح خدوسي: موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة، بئر التوتة، الجزائر ص: 11-12. وانظر مقال لمن أعيش مجلة الشهاب، ج10، م12، 135هـ/1937م.

2 ـ ابن باديس: حياته وآثاره لعمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1968م، ج1،ص: 74.

المبادئ الأولية للعربية وعلوم الأصول والفروع، وقد اهتم به أستاذه هذا أيّما اهتمام، ونصحه بعدم قبول أية وظيفة في الحكومة الفرنسية حتى لا تقيده في إبداء رأيه بكل شجاعة، وفعل ابن باديس بنصيحة أستاذه، وساعده على ذلك كون أسرته من الأسر الميسورة كما أسلفنا، وتزوج ابن باديس وعمره لا يتعدى الخامسة عشرة.

وفي سنة 1908م سافر إلى تونس والتحق بجامع الزيتونة حيث درس بها دراسته الثانوية، وتتلمذ هناك على عدد من العلماء أمثال: الشيخ محمد النّخلي، والشيخ الطاهر بن عاشور، وكان معجبا بأستاذه الأول – الشيخ محمد النّخلي – وقد تأثر به كثيرا، وذكر فضله عليه في بعض كتاباته فيما بعد ... وأثناء وجوده بتونس « اتصل ببعض روافد الفكر العربي والإسلامي الإصلاحي »[3] وإن لم يكن ذلك الاتصال مباشرا « وحصل ابن باديس على شهادة العالمية في السنة الدراسية (1911 – 1912) ثم أمضى سنة أخرى للتدريس في جامع الزيتونة »[4]. وفي سنة 1913 عاد إلى قسنطينة مدينته، وبدأ يعلّم أبناء وطنه، لكنّه في السنة نفسها توجّه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، وهناك سنحت له الفرصة أنْ يلتقي لأول مرة، بالشيخ البشير الإبراهيمي، واتفقا على وضع الخطط الأولى للإصلاح في الجزائر، وبعد قضائه مناسك الحج عاد إلى الجزائر، ليستقر في مدينة قسنطينة، ويبدأ في تنفيذ خطته الإصلاحية.

جوانب من جهوده الإصلاحية والتربوية

بدأ نشاط ابن باديس الفعلي بعد عودته من البقاع المقدسة أي سنة 1913 حيث بدأ بتعليم الصغار والكبار كل حسب مستواه « وكان يلقي دروسه في مسجد سيدي قموش وفي الجامع الكبير بالمدينة لفترة من الزمن ... وكان يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر ويظل طول نهاره يعلّم الأطفال الدين وعلوم العربية متدرجا معهم حسب مستوياتهم المختلفة... ثم إنّه كان لا يقطع عمله إلا لساعة بعد صلاة الظهر يتناول فيها قليلا من الطعام، ثم يستأنف عمله حتى صلاة العصر، ثم صلاة المغرب والعشاء، غير أنَّ عمله ما كان ينتهي عند هذا الحد، إذ كان يستأنف الدروس لكهول قسنطينة وشيوخها

3 ـ ابن باديس وعروبة الجزائر لمحمد الميلي، دار الثقافة، بيروت، 1973 م، ص: 63.

4 ــ عبد الحميد بن باديس رجل الإصلاح والتربية لعمر بن قينة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974 م، ص: 35.

مـن التاسـعة مسـاء حتـى منتصف الليل يفسر لهم القرآن في الجامع الأخضر »[5]. ولـم يكـتف بهـذا بـل كـان ينـتقل بين المدن الجزائرية خصوصا العاصمة ووهران وتلمسان ليلقـي فـيها دروسـاً في التفسـير كـل أسبوع، وهكذا استطاع أن يكتشف بؤس وحرمان الطـبقات الكادحـة عـن كـثب حيث كان أغلب تلامذته من الطبقات الفقيرة والمتوسطة. وبقـي يعمـل دون كلـل أو ملل في جبهات مختلفة، ففي سنة 1925 بدأ يحارب جماعة الطـرقية أو جماعة الطرق الصوفية، وهي جماعة يعود تاريخ نشأتها إلى القرن الأول أو الثانـي الهجـري في المشـرق العربـي، وكانـت موجودة في الجزائر في هذه الفترة، وقد انتسـب إلـيها في بـادئ الأمـر، قـبل أن يعـرف أهـدافها وتخاذلها ومساندتها لفرنسا، ثم اعتزلها وشن عليها حملة شعواء.

وكانت تلك الجماعة تؤمن بالشعوذة، والخرافات، والتمائم، وزيارة القبور، والبدع الـتي مـا أنـزل الله بهـا مـن سـلطان، وكان شعارها (اعتقد ولا تنتقد)، وقد شوهوا الدين الإسـلامي الحنـيف بآرائهم الخرافية والاتكالية، فهم يفسرون قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: من الآية 20]، بقولهم: فما دام الله قادراً على كل شيء فهو الذي أعطـى المقـدرة والقـوة لفرنسـا علـى احـتلال الجزائـر وهو الذي يقدر أن يخرجها من الجزائـر متى شاء من دون حرب وهي فكرة - كما أرى - استعمارية تخاذلية، اتكالية، ودينـنا الإسـلامي الحنـيف مـنها براء. لذا أسّس عبد الحميد بن باديس جريدة (المنتقد) سـنة 1925م ردَّ فعـل لشـعار تلـك الطرق الذي يقول: (اعتقد ولا تنتقد)، وكأنَّه باختياره لهـذا العنوان يقول: إنَّ منهجنا في عملنا هو النّقد للأوضاع السّائدة ولأفكار تلك الطرق المحسـوبة علـى الصوفية، ومنذ سنة 1925م بدأ حملته على الطرق الصوفية، كما حارب الآفـات الاجتماعـية الأخـرى كالجهـل والفقر والبطالة وما إلى ذلك، لكن فرنسا تنبّهت لخطر هذه الجريدة « فأصدرت قرارا بتعطيلها بعد أنْ صدر منْها ثمانية عشر عددا[6].

ولكـن ابن باديس ما لبث أن أصدر جريدة أخرى بعنوان (الشهاب) وكان طابعها دينـيا وسياسـيا مرنا، وبهذا استطاعت أن تكون أطول عمرا من سابقتها، إذ استمرت من 1926 م سـنة صـدورها إلى عام 1940 م سنة وفاة ابن باديس - رحمه الله وطيب ثراه - « وقـد أصـدر ابن باديس صحفا أخرى كالشريعة، والسنة المحمدية، والصراط، لكنها لم

5 ـ الإمـام عـبد الحمـيد بـن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية للدكتور محمد قاسم، دار المعارف بمصر، 1968 م، ص: 19.

6 ـ د محمد قاسم، المرجع السابق، ص: 20.

تعمر طويلا، إذ عملت السلطات الفرنسية على إيقافها لشدة خطورتها وعظيم تأثيرها في النفوس»[7]، وفي مايو سنة 1931 م تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في نادي الترقي بالعاصمة، وانتخب ابن باديس رئيسا لها في غيبته، ومنذ توليه رئاسة الجمعية، وهو يقف مواقف شجاعة.

تفكيره في الثورة

في 7 يونيو 1936 م تأسس المؤتمر الإسلامي الجزائري، وانضم إليه ابن باديس في حذر، وفي 18 يوليو 1936 م سافر وفدٌ من المؤتمر إلى باريس ومن بينهم ابن باديس للمفاوضة مع الحكومة الفرنسية، لكن الوفد رجع خائبا حيث هددهم وزير الدفاع الفرنسي آنذاك بقوله: « إنَّ لدى فرنسا مدافع طويلة»، فرد عليه ابن باديس: « إنّ لدينا مدافع أطول ... إنّها مدافع الله»، وبعد عودة الوفد خائبا أنشد ابن باديس قصيدته المشهورة:

شَعبُ الجَزائري مُسْلِمٌ وَإلىَ العُروبَةِ يَنْتَسِبْ
مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ أو قَالَ مَاتَ فَقَد كَذِبْ
أوْ رَامَ إدمَاجًا لَهُ رَامَ المُحالَ مِنَ الطَّلَبْ
يَا نَشْءُ أَنْتَ رجَاؤنَا وَبِكَ الصَّباحُ قَدِ اقْتَرَبْ
خُذ للحَياة سِلاَحهَا وَخُضِ الخُطوبَ وَلاَ تَهَبْ
وأذْقْ نُفُوسَ الظّالِمينَ السُّمَّ يُمْزَجُ بِالرَّهَبْ
واخْلَع جذورَ الخَائنينَ فَمِنْهُمْ كلُّ العَطَبْ
مَنْ كَانَ يبْغي ودَّنَا فَعَلَى الكرامَةِ وَالرّحَبْ
أوْ كان يبغي ذُلّنَا فَلَهُ الْمَهَانَةُ والحَرَبْ

إلى أن يقول:

فإذَا هَلَكْتُ فَصَيْحتي تحْيَا الْجَزائرُ وَالعَرَبْ[8]

فالمُتمَعّنُ في هذه القصيدة يجدُ ابن باديس قد أعلن الحرب على فرنسا بالكلمة أوّلاً، ثم بالثورة المسلحة ثانيا، وكان قد حدّد تاريخ بداية الثورة المسلحة بدخول إيطاليا

---

7 ـ المرجع نفسه، ص: 21.

8 ـ كتاب الأناشيد الوطنية، جمعها الهادي درواز، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، ص: 22 – 23.

الحرب العالمية الثانية بجانب ألمانيا ضد فرنسا، مما يحقق هزيمتها السريعة، ولكن المنية أدركت ابن باديس قبل موعد إعلان الثورة ببضعة وخمسين يومًا، فقد توفي 16 أبريل 1940 م، وقيل مات مسمومًا[9]، ودخلت إيطاليا الحرب في10 يونيو1940م[10].

وذكر الشيخ محمد الصالح بن عتيق مدير مدرسة الميلية، أنَّ ابن باديس انفلت من الرقابة الاستعمارية المضروبة عليه بقسنطينة لأنه كان تحت الإقامة الجبرية، وزار الميلية خفية متنكرا سنة 1940 م، واتصل به وسأله عن مدى استعداد الشعب الجزائري في منطقة الميلية للثورة المسلحة، فأجابه ابن عتيق بأنَّ رجال الميلية سيجدهم رجال بارود (أي شجعان صناديد) ويمكنه أن يعول عليهم إذا جد الجد؛ لأنَّ الاستعداد النفسي للثورة كامل فيهم، ودعاه للنزول فاعتذر؛ لأن الزيارة قصيرة لا تسمح له بطول الإقامة[11]. وقد تنبأ ابن باديس بالثورة وتحرير الوطن من الاستعمار الفرنسي في نشيده الشهير (اشهدي يا سماء) حين قال:

اشهدي يَا سَمَا وَاكْتُبَنْ يا وُجودْ
إنَّنَا لِلحِمَا سَنَكُونُ الجُنُودْ
فَنَزِيحُ البَلا وَنَفُكُّ الْقُيُودْ
ونَنيلُ الرِّضا مِنْ وَفَّى بِالعُهُودِ
ونُذيقُ الرَّدَى كُلَّ عاتٍ كَنُودْ
وَيَرَى جيلُنَا خَافقَاتِ البُنودْ
ويَرَى نَجْمُنَا لِلْعُلاَ في صُعودْ
هَكَذَا هَكَذَا سَنَعُودْ
فاشْهَدي يَا سَمَا واكتُبْن يا وُجودْ
إنَّنَا للعُلاَ إنَّنَا للخُلُودْ[12]

«وفي هذا النشيد الثوري ما ليس في غيره من التصريح بالجنود يدافعون عن الحمى، ويرفعون خافقات البنود، ويزيحون البلاء النازل ويفكون القيود، ويذيقون الردى

9 ـ د.محمد قاسم: المرجع السابق، ص: 15.
10 ـ أحمد حمّاني: ابن باديس والثورة، مقال منشور في مجلة الرسالة التي تصدر عن وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، العدد: 4، ربيع الأول 1401 هـ، ص: 29.
11 ـ أحمد حمّاني: المرجع السابق، ص: 29 ـ 30. وسليمان الصيد: المرجع السابق، ص: 29 – 30.
12 ـ الهادي درواز: المرجع السابق، ص: 29.

كل عاتٍ كنود»[13]، وقد تحقق ما ورد في هذا النشيد من أفكار فاستقلت الجزائر وعادت عربية مسلمة كما أراد لها الشيخ ابن باديس رحمه الله وطيب ثراه.

وفي سنة 1937 حينما لاحت بوادر الحرب العالمية الثانية رفض ابن باديس أن يبعث برسالة تأييد للحكومة الفرنسية كما اقترح عليه بعض الأعضاء. وهكذا ظل الزعيم الروحي لحرب التحرير الكبرى يجاهد في جبهات متعددة، وقد (ترك، في ظرف زمني قصير نسبيا، نحو عشرين سنة تأثيراً بالغًا، كما ترك كتابات هامة، لعبت دورها حين صدورها، وما تزال فيها بعض دروس وعظات لمن يتأمل ويبحث)[14].

منهج ابن باديس في الإصلاح والتربية

كان منهج ابن باديس، في الإصلاح والتّربية، يختلف عَمّن سبقه من المصلحين؛ لأنه استطاع أنْ يربط بين الحياة الاجتماعية والحياة الثقافية، (ربط بين الإصلاح الديني والاجتماعي)، كما كان إصلاحه تطبيقيا أكثر منه نظريا، وهذا الذي لم يوفق فيه غيره من المصلحين السابقين له، ويعد ابن باديس باعث النهضة الحديثة في الجزائر؛ لأن الحياة الثقافية قبله كانت مهملة، فلما جاء أنشأ المدارس الحرة، وبدأ بتعليم النشء بنفسه، وحارب الآفات الاجتماعية المتفشية في المجتمع، لا سيما الطرق الصوفية كما سبق ذكره، ونقد المفاهيم الدينية الخاطئة التي كان ينشرها هؤلاء، فاتخذ الصحافة وسيلة مهمة لتوصيل أفكاره إلى الشعب وتوعيته من خلال « المنتقد » و« الشهاب »، وهكذا كان الإصلاح الديني عند ابن باديس هو الربط بين العبادات والمعاملات، وعدم التفريق بين العقيدة والعمل، فالدين الإسلامي دين عبادة وعمل ونشاط وأخلاق وتسامح، وهذا ما كان يطبقه ابن باديس في حياته اليومية حتى يكون قدوة لغيره. وسبب تخلف الأمة الإسلامية، في نظره، هو الابتعاد عن الكتاب والسنة، والإصلاح الديني والخلقي لا يكون، في نظره، إلا بالرجوع إلى الكتاب والسنة.

محاولة اغتياله

ولما كان ابن باديس يشكل خطرا على الاستعمار الفرنسي وعلى الطرقية التي تسانده دبرّوا له مكيدة اغتيال في سنة 1937م، عندما خرج عليه قاتل مأجور ذات ليلة وهو عائد إلى بيته في منتصف الليل بعد انتهائه من دروسه في المسجد ليغتاله، لكنه لم

13 ـ أحمد حمّاني: المرجع السابق، ص: 33.

14 ـ محمد الميلي: المرجع السابق، ص: 15.

يفلح في تنفيذ جريمته، وأسرع أنصار ابن باديس وألقوا القبض عليه، وأرادوا الفتك به لكن ابن باديس منعهم وعفا عنه، وقال لهم: اتركوه إنه مأجور. وفي هذه الحادثة أنشد محمد العيد آل خليفة قصيدة منها:

حَمتْك يَدُ المَوْلَى و كُنْتَ بِهَا أولَى ... فيالكَ مِنْ شَيخَ حَمَتْهُ يَدُ المَوْلَى
فَيَا لو ضِيع النّفْس كَيفَ تَطاولتْ ... بِهِ نَفْسُه حتى أسرّ لَكَ القَتلاَ
فَوَافتكَ بالنَّصْر العزيز طَلائعٌ ... مُبَاركةٌ تَتْرى من الْملأ الأعْلَى
وإنْ أنسَ لا أنْسى الذينَ تَظَافَرُوا ... عَلى الفَتْكِ بالجَاني فقلتَ لَهُم مَهْلا[15]

تشتمل هذه الأبيات على غرضين أدبيين، هما: المدح و الهجاء، مدح ابن باديس، وهجاء المجرم الذي حاول اغتياله، ومن هذه الحادثة نلمس مدى تسامح ابن باديس وعفوه عند المقدرة، والعفو عند المقدرة من شيم الكرام.

نشاطه في التربية والتعليم

لم يكن ابن باديس مصلحا فحسب، بل كان أيضا مربيًّا ومعلما ومفكرا سياسيا، فحياته سلسلة متصلة الحلقات، ويمكننا أن نقول إن نشاطه في التربية والتعليم من أبرز الجوانب في حياته العملية، فهو الذي أسسَّ (مدرسة التربية والتعليم) بمدينة قسنطينة، ولا تزال تحتفظ بهذا الاسم حتى اليوم، وهو الذي كان يشرف عليها بنفسه، وكان يؤمن بأنَّ التربية والتعليم أمران هامان في الحياة؛ لأنهما شرطان أساسيان من شروط تقدم الشعوب وتحضرها. كما أنهما شرطان أساسيان لتحرير الشعوب من سيطرة المستعمرين، وكانت العملية التربوية تهدف عنده إلى التربية القومية والأخلاقية والوطنية والدينية، كما كان متواضعا جدا مع تلامذته يتقرب إليهم ويشاركهم في حل مشاكلهم الخاصة. هذه لمحات من سيرة ابن باديس وجوانب من جهوده الإصلاحية والتربوية، والحقيقة أن من يريد دراسة شخصيته يجد صعوبة كبيرة في الاختيار، أي الجوانب يدرس من بين جوانبه المختلفة ؟ خصوصا في مثل هذه العجالة، هذه الشخصية الفذة التي أنعم الله بها على الشعب الجزائري لم تلق العناية الكافية من الدراسة والبحث، من قبل الباحثين والدارسين حتى الآن، لا سيما أنّ بعض تلامذته لا يزالون على قيد الحياة، وهي فرصة ثمينة لا تعوض في المستقبل، لذا يجب أن نعطي هذه الشخصية حقها من الدراسة والبحث في جوانبها المختلفة، هذه الشخصية التي عاشت للجزائر وللعرب وللمسلمين كافة.

---

15 ـ ديوان محمد العيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ص: 122.

المصادر و المراجع

1- الإمـام عـبد الحمـيد بن باديس، الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية للدكتور محمد قاسم، دار المعارف بمصر، سنة 1968.
2- الأناشـيد الوطنـية، جمع الهادي درواز، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر 1954م.
3- ابن باديس حياته وآثاره لعمار طالبي، طبعة دار ومكتبة الشركة الجزائرية، سنة 1968.
4- ابـن بـاديس وعـروبة الجزائـر لمحمـد الميلي، دار العودة - دار الثقافة، بيروت، سنة 1973.
5- ديوان محمد العيد آل خليفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
6- الشهاب، ج10، م12، 1355هـ/1937م.
7- عـبد الحمـيد بن باديس، رجل الإصلاح والتربية لعمر بن قينة، طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.
8- مجلـة الرسـالة الـتي تصدر عن وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، العدد: 4، ربيع الأول 1401هـ.
9- معجـم أعـلام الجزائـر لعـادل نـويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1980م.
10- موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، لرابح خدُّوسي، دار الحضارة، الجزائر، 2003م.